

## دلالة المكان في "رسالة التوابع والزوابع" لـ "ابن شهيد الأندلسي"

أ/ فاطمة الزهراء عطية

جامعة بسكرة

د/ علي عالية

جامعة باتنة

### Résumé:

Cette étude s'expose essentiellement, sur le plan narratif, sur le lieu en tenant compte la définition exacte tant sur le plan ancien que contemporain et en essayant de mettre en évidence quelques explicatifs tels que l'espace, l'endroit, le vide,...

En étudiant cette technique narrative, on constate quelques éléments cités par "Ibn-Chouhaid" que c'est un domaine personnel dans lequel on peut trouver un autre lieu d'oxygénation qui peut remplacer le votre.

### المُلخَص:

تتعرض هذه الدراسة إلى أحد المفاهيم الأساسية في البناء السردى؛ ألا وهو المكان في محاولة ضبط مفهومه في المفكرة النقدية الحديثة والمعاصرة من جهة، ومحاولة المقاربة بينه وبين مصطلحات أخرى كالفضاء والحيز والفراغ و..

ونحن إذ ندرس هذه التقنية السردية، فإننا نكشف بعض عناصر أدبيتها، ومقاصدها البحثية التي يرمي إليها "ابن شهيد"؛ وهو التعبير عن رغبة ذاتية لم تجد لها مُتنفسا إلا في بناء واقع ثانٍ فوق الواقع الذي عاشه. فيخلق أماكن وقعت فيها الأحداث مع الصبغة الخيالية التي أضفيت عليها.

## مقدمة:

المكان مقولة سردية تحظى بالإثارة، والاهتمام عند الدارسين والمنظرين، لأمر ما كان الفضاء المكان كغيره من العناصر السردية الأخرى -الشخصيات والزمن- يكون حضورا هاما في العمل السردى، بل يشكل جوهر حكايا مائزا بأبعاده، ودلالاته، وبوصفه فضاء نصيا خالصا فيما ينتج، فهو يتضمن مبررات تخيلية في ذاته أكثر "مما يحيل على أمكنة محسوسة، أو مدركة مباشرة"<sup>(1)</sup>.

بمثل هذه الأهمية التي يحتلها مكون المكان، تسترعي انتباهنا مشكلة مطروحة مابزال الأخذ والرد فيها متوacula، فنحن أمام أزمة تعدد المصطلح، فظهرت مصطلحات كثيرة تتزامن ومصطلح المكان كالحيز، والفضاء، والبيئة، والفراغ.

إذا أخذنا مصطلح الفضاء على محمل البحث، هذا اعتبارا من قناعتنا أنه عنصر جمالي هام من "عناصر الخطاب الأدبي رواية، أو مسرحية، أو شعرا، ولكنه مصطلح جديد دخل إلى ثقافتنا النقدية المعاصرة بقوة من خلال أعمال النقاد الفرنسيين من أمثال "بارث"، و"جنيت"، و"تودوروف"، و"كريستيفا" وسواهم، ولكن هذا المصطلح مر إلينا بواسطة الدارسين المغاربة الشبان، والمعاصرين الذين سبقونا إلى ذلك لاتصالهم المباشر بالحركة النقدية الفرنسية المعاصرة، ولكن هؤلاء لم يبلغوا مرحلة الاتفاق حول تحديد هذا المصطلح تحديدا نهائيا، بل ظل في دراستهم رجراجا متخلخلا، فمنهم من يستخدمه بمعنى "المكان Lieu"، ومنهم من يستخدمه بمعنى "الحيز"، أو ما هو قريب من ذلك، وحجتهم في ذلك ترجح هذا المصطلح في الثقافة الفرنسية بين هذا الناقد، أو ذاك، ناهيك عن اختصاصات النقد المعاصرة، وتشعباتها الفلسفية، والإيديولوجية، وسواهما"<sup>(2)</sup>.

فالفضاء يفهم من هذا التصور على أنه موضوع شامل يحتوي "الأمكنة الواقعية، والمتخيلة بما تحويه من مساحته، وديكور، وأثاث، يحتوي عالم الرواية المرئي واللامرئي، وهو ذو صلة بعناصر السرد الأخرى والأحداث، والعصر، واللغة"<sup>(3)</sup>. ونحن بهذا استنتجنا أن الفضاء مصطلح شامل لكل الآليات السردية، فيجوز لنا أن نقول فضاء الزمن، فضاء الشخصيات، فضاء المكان ...

وكل ما تم استخلاصه من محاولة لضبط مصطلح الفضاء هو اعتبار "أوسع وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية"<sup>(4)</sup>، إنه ليس معادلا للمكان"<sup>(5)</sup>.

أما إذا أردنا أن نضع أيدينا على تعريف للمكان، ولمس جمالياته لوجدناه قد شكل بؤرة اهتمام لدى الإنسان منذ القديم، والمتصفح للشعر الجاهلي سيلمح لا محالة لوحة جمالية تعد خير معبر للمكان؛ فالمقدمة الطللية ذات "الرمز الخالد، والمفصل الحيوي في بنية القصيدة الجاهلية، إنما هي تجسيد حي للمكان؛ ومن ثم لدلالاته النفسية التي عانى منها الشاعر من هجر، وبعد من قبل الحبيبية، أو القبيلة، وقد أدى التحول المكاني للشاعر إلى جعل الطلل شاهدا شاخصا، وموقفا حاضرا للمكان في القصائد الكثيرة التي ورد فيها ذكر الطلل، واستذكار الديار، والبياء عليها"<sup>(6)</sup>.

والأمر نفسه، إذا ما حاولنا ملامسة وجوده في المفكرة النقدية الحديثة، والمعاصرة التي تعتبره نقطة مهمة داخلية في نطاق السرد بمختلف ألوانه، وفنونه، فقد وضع للإشارة إلى "موضع جسم ما، وتحديده"<sup>(7)</sup>، وهو الفهم نفسه الذي توقفت عنده الباحثة "سيزا قاسم" عندما اعتبرته "محدد يتركز فيه مكان وقوع الحدث"<sup>(8)</sup> إلى جانب هذا، اقترحت طريقة معينة لدراسة المكان، إذ إن السبيل لدراسته تتم عن طريق "تشكيل عالم من المحسوسات قد تطابق عالم الواقع، وقد تخالفه في صور ولوحات تستمد بعض أصولها من فن الرسم، والتصوير"<sup>(9)</sup>.

وهكذا يغدو المكان بُعدًا من الأبعاد الفنية، والجمالية في العمل السردى.

إضافة إلى المصطلحين السالفي الذكر، نود الإشارة إلى مصطلح ازداد اقترانه يوما بعد يوم بهذين المصطلحين؛ "الحيز" في محاولة ضبطه، والوقوف على ملامحه المميزة له.

يُشكل "الحيز" أحد العناصر الأساسية في السرد، فهو على حد قول الباحث "عبد الملك مرتاض" عبارة عن "فضاء خرافي، أو أسطوري، أو كل ما يند عن المكان المحسوس: كالخطوط، والأبعاد، والأحجام، والأثقال، والأشياء المجسمة مثل الأشجار، والأنهار، وما يَعتَوَّرُ هذه المظاهر الحيزية من حركة، أو تغير"<sup>(10)</sup>. ويذهب إلى أكثر من

ذلك، إذ نراه الباحث الأكثر استخداماً لهذا المصطلح، بحيث يستعمله في كل كتبه المتعلقة بالسرد، ويقر بأن مصطلحه هذا هو الأنسب، والأصح، باعتبار أن الفضاء والمكان مصطلحين قاصرين بالقياس إلى الحيز، فيرى الأول قاصراً لأن معناه بالضرورة "جارياً في الخواء، والفراغ"<sup>(11)</sup>، أما الثاني محدود إذا كانت له "حدود تحده، ونهاية ينتهي إليها، فإن الحيز لا حدود له، ولا انتهاء"<sup>(12)</sup>.

ووفق هذا الطرح، فإننا نجد "عبد الملك مرتاض" ملحا على بسط ونشر هذا المصطلح في الساحة السردية، لأنه المصطلح - حسبه - الأصح، والأقوم لدراسة أي نص سردي، على خلاف المكونين الآخرين، على اعتبار أن "المكان يعني الجغرافيا، وأن الفضاء يعني الأجزاء العليا التي لا سيادة لأي بلد فيها، والفضاء يعني الفراغ بالضرورة (...)"، بينما الحيز قادر على أن يشمل كل ذلك بحيث يكون اتجاهاً، وبعداً، ومجالاً، وفضاءً، وجواً، وفراغاً، وامتلاءً في أي شكل من أشكاله الهندسية الكثيرة"<sup>(13)</sup>.

فكل ما تم استخلاصه من محاولة ضبط المصطلحات هو خروجنا باستخدام مصطلح مركب نراه أجدى، وأنفع لهذه الدراسة، وهو "الفضاء المكاني" الذي به ندرس المكان، باعتباره جزءاً من الفضاء. إضافة إلى هذا المصطلح المركب نلجأ إلى استخدام مصطلح المكان بمعزل عن الفضاء أثناء الدراسة، لتبيين مقصدنا الذي نرمي إليه؛ وهو دراسة الأماكن التي وقعت فيها الأحداث مع الصبغة الخيالية التي أضفيت عليها على اعتبار أن هذه الأماكن موجودة بالفعل في عالمنا الواقعي "الحقيقي"، لكن "ابن شهيد" جعلها تحمل هذا البعد الخيالي الصرف أثناء رحلته السماوية إلى أرض التّوابع والزّوابع (أرض الجن) منتقلاً من خلالها بين التّوابع طالبا الإجازة منها.

### تجليات المكان في الرسالة :

نشير منذ البدء إلى أن "ابن شهيد" قد جعل أحداث رحلته في السماء حيث "أقام من شخصه بطلاً للقصة يتعهد حوادثها بنفسه، مُستصحبا تابعه "زهير بن نمير" دون أن يليه عملاً يستحق الذكر، غير التعريف بالأشخاص، والأماكن"<sup>(14)</sup>. ومثلما وفق في "رسم صورة التّوابع الذين التقى بهم في أرض الجن، كان موفقاً أيضاً في تصوير أماكن

التوابع<sup>(15)</sup>، فتعددت التوابع، وتعددت الأماكن، والفضاءات السردية، ولهذا سنذكر بيئة كل تابع مع إبراز خصوصية المكان فيها.

وليس استباقا للحديث عن كل تابع، والمكان الذي حل به، إنما بدءا نؤكد أن رغبة "ابن شهيد" في الانتقال إلى عالم الجن تحققت بفضل تابعه الذي طار عنه ثم "انصرف كلمح بالبصر"<sup>(16)</sup> فإذا به "يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدوّ فالدوّ، حتى التمحت أرضا لا كأرضنا، وشارفت جوا لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر"<sup>(17)</sup> ليعلمنا أنها تلك أرض الجن التي تمنى "ابن شهيد" رؤيتها، وتحققت رؤيته عندما حل بها.

وحتى تتضح الرؤية أكثر حول المكان، وتواجهه في الرسالة التي أسهم في تطوير أحداثها، يتوجب علينا أن ننظر أهم الأمكنة المسيطرة فيها، مع محاولة فك دلالات كل مكان في فضاء الرسالة، وهذا باقتراحنا هذا الجدول الذي يختصر هذه الأماكن.

القسم	المكان	النموذج من الرسالة
المدخل	البستان	فجزعت، وأخذت في رثائه يوما في الحائر.
توابع الشعراء	السّماء الأرض والبستان	- وسار بنا كالطائر، يجتاب الجوّ فالجوّ، ويقطع الدوّ فالدوّ. - حتى التمحت أرضا لا كأرضنا، وشارفت جوا لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر، فقال لي: حلت أرض الجن "أبا عامر".
	البستان	- إلى واد من الأودية ذي دوح تنكسر أشجاره، وتترنم أطيّاره.
	البستان	- غيضة** شجرها شجران: سأم*** يفوح بهاراً***، وشحر**** يعبق***** هندي***** وغارا.
	البستان الأرض (القصر)	فرأينا عينا معينة***** تسيل، ويدور ماؤها فلكيا، ولا يحول. - إلى شجرة غيناء يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء.
الأرض	- وجزنا في ركضنا بقصر عظيم قدمه	

ناورد***** ، يتطارد فيه الفرسان. - وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة، فصحت: من منازل "أبي نواس"، ورب الكعبة العلياء ! وسرنا نجاتب أديارا، وكنائس وحانات، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه، وتصوك نوافحه، ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه .	(دير حنة)	
- فقال لي زهير: جمعت لك خطباء الجن بمرج دهمان.	الأرض (مرج دهمان)	توابع الكتاب
- وحضرت أنا أيضا و"زهير" مجلسا من مجالس الجن؟ وكان بالحضرة فتى حسن البرّة.	الأرض (مجلس الحضرة)	نقاد الجن
- قرارة غناء***** ، تفتت عن بركة ماء. - ثم ترفعت، وقد اعترتها خفة شديدة في مائها، فمرة ساحبة، ومرة طائرة، تنغمس هنا وتخرج هناك، قد تقبب جناحها، وانتصبت ذنابها.	البستان الماء والسماء	حيوان الجن

### جدول (01) يوضح أهم الأماكن في الرسالة.

نستخلص أن الفضاءات المكانية المسيطرة هي: فضاء السماء، فضاء الأرض، فضاء البستان، فضاء الماء، سنتناولها بالتدرج مع إعطاء كل فضاء الدلالات التي يحملها.

فإذا ما خصصنا القول لنشرع للفضاء الأول - السماء- بابة ننظر له من خلالها، فنحصرها في دلالات عدة، بداية من الدلالة الأم التي سعى "ابن شهيد" على أن يبرزها، وهي سعيه الرحيل إلى السماء حيث يحقق رغبته الذاتية التي لم تجد لها "مكانا في الواقع، فسكنت الخيال. وإذا ما كان دور الخيال يتمثل في تشييد واقع فوق الواقع، فإن الرسالة قد مكّنت صاحبها -إزاء الظروف المحيطة به- من الخروج عن عالمه الحقيقي، والإقامة في عالم آخر من صنع خياله، عالم تنتفي فيه التناقضات، والعراقيل، وتكتسب فيه الرغبات الدفينة حق التحليق بحرية مطلقة دونما قيد أو موانع"<sup>(18)</sup> مستأنسا بالتوابع، ومحاورا لها،

ويزداد تأكيدنا على أهمية هذا الفضاء عندما استعمل الفعل "طار" في استهلال رحلته إلى تلك الأرض، فغير ناء عنا دلالة هذا الفعل الذي يحمل خصوصية الطيران، والتحليق الذي لا يكون إلا في السماء.

وإذا ما بدأنا تفتيت هذه الدلالة الأم لتوقفنا عند دلالات أخرى يرمي الراوي من خلالها بث ملكات كامنة في نفسه، لعله حبا في الرفعة، والعلواء، والتسامي إذ هو "الشهيد الأشجعي" الذي يحمل بذور الاعتزاز، والعجب بملكته الأدبية أولا، وبنسبه أينما حلّ، وحضر ثانيا.

وقد يكون استعمال السماء من باب التذليل على التأمل، والتفكير في ملكوت الخلاق عز وجل، والإنسان العاقل هو الذي يحلق في السموات الربانية متأملا، ومختارا في إبداعات بثتها أنوار ربانية مركزا، وباحثا عن أسرار الخلود والجمال فيها. و"ابن شهيد" يعتبر نفسه إنسانا كاملا، وعاقلا واعيا لا تأخذه ملذات، ولا ملامهي الحياة، فهو يعرف ربه، ويتأمل كونه ليزداد إيمانا، وثقة في الله، وفي نفسه، ولعل هذا التأمل، والإيمان ازداد أثره في أيامه الأخيرة، فقد روي أنه كان شديد الخوف من الموت "فأخذ يدعوا الله عز وجل، ويشهد شهادة التوحيد، ويرغب إلى الله أن يرفق به، حتى أسلم الروح"<sup>(19)</sup>. ونظرا لارتباط هذا الفضاء بالتأمل، فإن "ابن شهيد" قد أراد أن "يثبت ميله إلى مثل هذا التفكير من خلال استعمال إطار السماء، وجعله المكان الذي يستحق أن تجري فيه أحداث رحلته"<sup>(20)</sup>.

وهذه الدلالات المتنوعة لهذا الفضاء العلوي "السماء"، وإن دلت على شيء فإنها تدل على نزعة داخلية تسكن "ابن شهيد"؛ وهي حبّ التفرد، والتفوق على ما أنجبت العربية من شعراء، وناثرين قبله وبعده، فهده تفكيره إلى نسج "التوابع والزوابع" التي بنى فيها انتصارات وهمية تشبع غروره، وكبرياه.

ولم يقف "ابن شهيد" عند دلالة هذا الفضاء الواسع، بل وظف فضاء آخر جديرا بالإفضاء حوله سماه؛ الأرض، لعلنا ذاكرين هذا في بداية الرسالة عندما جابا الجو، وقطعا الدوّ معا، ليلمحها أرضا ليست كأرضنا، ويشارفا جوا لا كجونا؛ إنها ببساطة أرض الجن. ومظاهر هذا الفضاء الثاني "الأرض" واردة في أكثر من موضع، مع علمنا أنه

جعل مسرح أحداثها في السماء العليا، لكنه غير مرة يوظف هذه المظاهر من جبال، ومروج، ووديان، ...

فقد جعل صاحب "أبي نواس" يعيش في قمة الجبل عندما قال: "وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل"<sup>(21)</sup>. ثم ينتقل في مقاطع من الرسالة إلى أرض توابع الخطباء الذين اجتمع بهم في مرج \*\*\*\*\* دهمان، ليدل هذا المرج على قطعة أرضية دار فيها الحوار، وثبت اللقاء، فهو بهذا يعاود الاتصال بالأرض الواقع، مع درايته الكاملة أن رحلته كانت في السماء الخيالية.

ومن ثمة سننوقف عند دلالة كلمة الجبل على ما بها من إحياءات الشموخ، والارتفاع، وصعوبة اعتلائه، لتجدها معبرة عن فكرة لا يمل "ابن شهيد" من تكرارها في مناطق كثيرة من الرسالة؛ وهي علو شأنه، وارتفاع أمره لعلمه، وأدبه، وكذا نسبه الذي لا يفتأ ذكره في كل موضع.

وبالنظر إلى مفردة الجبل نجد أنها "ارتبطت في موروثنا الديني بـ "ابن نوح" وكان من العصاة المتمردين على الحقيقة التي جاء بها أبوه، كما ارتبطت بـ"موسى" النبي الذي كان يذهب إلى جبل طور لمناجاة ربه"<sup>(22)</sup>، لكننا بورود مفردة الجبل في الرسالة ترتبط الدلالة أكثر بـ"موسى" وتبعد عن "ابن نوح"، لتدل على ابتعاده عن مظاهر الحياة الأندلسية العابثة، واللاهثة وراء زخارف الدنيا، وملاهيها من جهة، والرغبة في الهدوء، والراحة، والسكينة التي يمتلكها الجبل لحظة لجوعنا إليه.

ومن ثمة تنفتح دلالة الجبل باعتباره "وسيلة وملاذ للانفتاح على الميتافيزيقي، والسحري، وهو المكان الأثير للتهيؤ للفعل النبوي، أو الحدسي (...). بانفتاح الشاعر على سحرية الوجود، ومن ثم أيضا تتداخل الحواس، وتتراسل، وتأخذ الأشياء صفات جديدة"<sup>(23)</sup> كما نجد أن الجبل من الفعل "جبل" \*\*\*\*\*؛ بمعنى طبعه وسليقته، وبهذا يكون "ابن شهيد" قد وظف فضاء الجبل للدلالة على شيء جبل عليه، وأبى أن يتركه، وقد يبتعد عنه، وقد يكون هذا الشيء العز، والرفاهية التي تعود عليها في ظل الدولة العامرية، أو قد تكون مكانته الأدبية التي حظي بها في عصره، وأراد "أبو بكر" أن يسلبه إياها رغم

تعوده عليها، أو قد يكون هذا الشيء المرأة التي أحبها في صباه، وتعود عليها، ثم اصطدم بموتها، ورافقها له، فلم يتمثل هذا الأمر نتيجة ارتباطه الوثيق بها<sup>(24)</sup>.

وإذا انتقلنا إلى المقطع الذي يوظف فيه النص "المرج"؛ هذه الأرضية الواسعة المحتوية على ألوان من الثمار، والحيوان ليبيث فكرة فحواها أن جمال الطبيعة الأندلسية ليس له جمال يناظره في كل ربوع الأرض. وربما حملت هذه الكلمة دلالة سعة صدر، وانسراح قريحة "ابن شهيد" كحال هذه المروج الواسعة التي تحوي السعة، والانسراح؛ فصدره كثيرا ما احتمل عداوة، وتكر الوشاة الذين أفسدوا عليه عند الحكام، فما كان إلا أن قابلهم بنفس طيبة صابرة، تأبى الخضوع لرغباتهم، وتشي بكثير من الرفعة، وكرم الخلق.

وإذا استقصينا دلالات الفضاء الأم "الأرض" من خلال توظيف "ابن شهيد" لها، فلا محالة تبدو للوهلة الأولى دالة على أن الأرض أم البشر، لأنها أصله، منها خلق، ومنه قول عز وجل: (وَاللَّهُ أَنْبَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) <sup>(25)</sup> لهذا حنّ "ابن شهيد" لأصله الأول - الأرض - فاستعان به ليتذكر، ويتعظ أنه منها، وعائد إليها.

وإذا ما تأملنا صور توظيف الأرض لوجدنا أن "ابن شهيد" يريد في كل ذكر لها أن يومئ أن الأرض هي منشأنا، ومعقلنا، وهي أمانا التي منها حقيقتنا الأزلية، لأصلنا الذي لا يغيره أي تطور علمي مهما تقدمت البحوث، والاكتشافات في أننا خلقنا من طين، إذ يقول جلّ وعلا: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ). <sup>(26)</sup>

هذا باختصار عن دلالة الأرض داخل هذا النص السردي، لنختزل كلمة أخيرة في أن الأرض سيدة المكان تأتي لتحتوي الموجودات العينية على ظهرها، وتحيط بها (...). الأرض المستقر، والموطن، فهي حاملة الوجود، وأصل كل جمال، ونهاية كل حي، كما أنها الأم الحنون، والكنز المدفون<sup>(27)</sup> فكانت كل الرموز، والمعاني حملتها الرسالية، وأراد "ابن شهيد" بثها لاقتناعه بها.

وبانتقالنا إلى الفضاء الثالث نتمثل دلالاته، لتوقفنا طويلا. لعله الفضاء الأكثر بروزا، وحضورا في ثنايا الرسالة، لهذا سنتوقف عنده لنبين نوايا "ابن شهيد" من وراء توظيفه غير مرة في الرسالة.

في البدء، نذكر أنه الفضاء الذي يحمل جماليات تجعل روحك، وحواسك تسمو إلى آفاق عليا من الشعور، والراحة؛ إنه فضاء الحائر "البستان"، إذ تم توظيفه عندما عرف أرض الجن، وقبلها عندما تذكر محبوبته التي راح يرثيها فيه، حين لم يجد متنفسا ولا مرتعا يدفن فيه همومه، وآلامه...

ولعلك تلحظ أن "ابن شهيد" كلما انتقل من تابع إلى آخر عزم على أن يلتقي به في بيئة خضراء، وسط رياض يصر على وصف مظاهرها، وإدراك ما تحويه من أبعاد جمالية تصور حسن إبداع الله عز وجل. فإذا انصرف إلى البيئة الجاهلية تراه يرسم صورة جميلة لهذه البيئة من خلال "تجواله على توابع أصحابه، فتكاد تنطق بكل ما فيها، من أودية، وأشجار محيطية بها، وأزهار يفوح منها السام، والبهار، وتتخللها الأنهار الجارية، وتغرد في الطيور بأصواتها العذبة"<sup>(28)</sup>.

وبانتقاله إلى البيئة العباسية منتبعا أثر توابع الشعراء العباسيين هناك، تلمسنا أنها بيئة لا نقل أهمية عن البيئة الجاهلية، بحيث تجده يجيد كل الإجابة في تصويرها؛ فهي بيئة مليئة بمظاهر اللهو، والمجون، كثرت فيها القصور، والمباني التي تشي عن رونق البناء، وجماله الهندسي. فيجعلك تعيش مع هذه الأمكنة في خيالاته حيث يدركها، ويبصرها، بل إنه "يضيف على المكان طابعا إنسانيا، فتمتزج الطبيعة بالإنسان، ويندمجان في بعضهما البعض، وكأن الحدود تُمحي بينهما، فيكون الإنسان منظورا إليه من خلال الطبيعة، وتكون الطبيعة منظورا إليها من خلال الإنسان"<sup>(29)</sup>.

إضافة إلى هذا فقد انتبه "ابن شهيد" للعلاقة بين الأمكنة، والشخصيات، فقد حاول أن يثبت لنا أنه من خلال الشخصية يمكن أن نعرف مكان تواجدها، ومن خلال المكان يمكن أن نعرف الشخصية، فقد أعطانا بيئة حقيقية صورت وضع "أبي نواس" -مثلا- أحسن تمثيل فهو عاشق الخمرة، واللهو، وكان لا بد أن يعبر مكان تواجده عن هذا، فكان يعيش في "دير عظيم تبغق روائحه، وتصوك نوافحه"<sup>(30)</sup>، فهو في "بيت قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه"<sup>(31)</sup> وكثرت فيه زقاق الخمر، والآلات الموسيقية وغيرها. فتشكيل الفضاء المكاني الذي ستجري فيه الأحداث "يتطلب من الروائي أن يكون بناؤه منسجما مع مزاج، وطبائع شخصياته، ومن ثم ينشأ نوع من التأثير المتبادل ما بين الشخصية، والمكان"<sup>(32)</sup>.

فهذا الفضاء السردي يعبر عن رغبة من "ابن شهيد" في التنفيس عن مكونات نفسه، ومكبوتات أعماقه، ونحن ندري أن البستان ينقل النفس البشرية إلى "مشهد حي من مشاهد الطبيعة الحية حيث خضرة الأشجار تزرع في النفس السلامة، والطمأنينة، وتبعث فيها زهو الحياة وشبابها (...). كما أن حالة الصفاء تستشف من المشهد، وتتحرك حاسة الشم بانتشار رائحة الأزهار التي تفتح النفس، وتجعلها تتجذب، لتأمل ذلك الجمال عبر حاسة البصر التي تُسهم في تكوين صورة فنية ذات أبعاد حسية، ونفسية"<sup>(33)</sup>، وما هذه الدلالات التي يحملها فضاء البستان إلا لنجعلها نرافق "ابن شهيد" في إحساسه بأن يهرب، ليرتاح من مجتمعه، وتناقضاته من جهة، وليشكي حقد معاصريه، وحسدهم، بل إسرافهم في الكيد له، والغض من شأنه من جهة أخرى.

كما يحمل هذا الإطار السردى دلالة أخرى، لعلها رغبته في تصوير الحياة، والبيئة الأندلسية التي أسرت ساكنيها، والسامعين عنها على حد سواء، فالبستان جزء صغير من حلقة أكبر هي الطبيعة الأندلسية التي أصبحت "الحلم البهيج الذي يملأ قلوب الشعراء في سكرات الخيال، وهي الأغنية المحببة التي يترنمون بها في أمسياتهم الجميلة الحالمة، ولياليهم العذبة الفاتنة"<sup>(34)</sup>، فراحوا ينسجون أجمل القصائد واصفين مظاهر هذه الطبيعة، فقد وصفوا "الرياض وأنوارها، والحدائق وأزهارها، بل انطقوا الأزهار فتفاضلت، وأجري الثناء على لسنها فمدحت (...). والشمس، والقمر، والهلال، والبدن، كما تحدثوا عن السحاب، والبرق، والرعد، والعاصفة، ثم أشاروا إلى الليل والنهار، ووصفوا تلك الأشياء وصفا حسيا رائعاً"<sup>(35)</sup>. لهذا فقد لازم هذا الفضاء السردى كامل المقاطع السردية، والمتصفح لـ"توابع والزّوابع" لا شك لأمح هذا في ثناياها.

وإذا أضفنا إلى هذا الفضاء المكاني فضاء آخر، يحمل في طياته دلالات كثيرة؛ إنه فضاء القصر الذي ربط بتابع "البحثري"، ولكنه يُمنح ملكية تامة لـ"طوق بن مالك" دون أن يعرفنا به. أضف إلى هذا أنه لا يمنحنا وصفا داخليا للقصر، على الرغم من اعتياده حياة القصور، خاصة زمن العامريين، بل إنه يكتفي بوصفه خارجيا من خلال ذكر ميدان القتال الذي يتقاتل فيه الفرسان أمام هذا القصر.

ربما نجد لهذا تفسيراً من خلال رجوعنا للفترة التي عاشها "ابن شهيد". ففي القسم الأول منها -أي زمن الرخاء والاستقرار- شهد عزاء، وترفاً في عهد العامريين، فشاهد زهو حضارة الأندلس في شتى مظاهرها، فإذا همّنا فضاء العمران لوجدنا قصوراً، ومجالساً فاخرة، وإذا تتبعت أكثر لرأيت "مدن تتزين بقصور فارهة - كالحمرء مثلاً- تحيط بها البساتين والحدائق، تحليها النافورات والتماثيل، تملؤها الأرائك، تجري من حولها الأنهار"<sup>(36)</sup>، واستحضر "ابن شهيد" لفضاء القصر راجع لتعلقه الشديد بهذه القصور التي "أسرفوا في تشييدها على غرار قصور الأمويين، والعباسيين في المشرق، واتخذوها منتجعات للاستجمام، والراحة، وللاستغراق في حياة اللهو والترف، والنعيم، بعيداً عن مقر الحكم بالحاضرة"<sup>(37)</sup>.

ويبدو جلياً أن هذه القصور فضاء يعبق بهندسة فنية، وزخرفة هندسية ضاربة في عمق البناء الأندلسي الذي طالما وشى ببقايا الحب والحلم، كلما وطئت رجلاك ذلك الفردوس المفقود و"ابن شهيد" واحد من أبناء هذه الأرض التي رسمت تضاريسها في جسده، فأصبح يحيا بها، ويتنفسها وصفاً واستدعاءً فاض عبقه في ثنايا رسالته. ولو عدنا للقسم الثاني من الفترة التي عاشها "ابن شهيد"، كان عهد الفتنة فيها قد بدأ، فشاهد سقوط الدويلات الأندلسية بكل مظاهرها، وكأن شيئاً لم يكن.

وإذا حملنا الفترة الأولى محل النظر لوجدناه مثبتاً لنا جمال البناء والعمران - وبخاصة القصور- في الدولة الأندلسية، حيث بلغت المباني، والمساكن مرحلة من الإبداع الفني الذي صنعه أنامل أندلسية، فترى عينك، وتشاهد سحر الهندسة، وروعة الزخرفة التي مازالت بعض معالمها شاهدة إلى اليوم. ونحن إذا أخذنا الفترة الثانية على محمل الجد، والبحث لاكتشافنا الحزن الذي تملك "ابن شهيد" من سياسة النهب، والسلب التي تعرضت لها البلاد الأندلسية على يد العابثين غير واعين لسحر هذه البلاد، فما وجد خير ممثل لهم غير أولئك الفرسان المتصارعين أمام باب القصر الذي يمثل الأرض الأندلسية، المرتبطة بإشراقه الماضي، وبهاء الأطلال التي تأسرك، وأنت تستعيد تاريخ المدينة التي تكالب عليها هؤلاء الفرسان الممثلين في الأقوام الدخيلة على الأندلس بتراتها، وكل صروحها الضخمة.

يضاف إلى هذه الفضاءات، فضاء لا يقل أهمية، بل إن توقفنا عنده لزاماً، فهو سر وجودنا وحياتنا، ولا نجد خير كلام ممثل له غير قوله عز شأنه: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)<sup>(38)</sup>؛ إنه الماء. فقد ظهر استعمال "ابن شهيد" له عبر العديد من المقطوعات السردية للرسالة.

فإذا ما أردنا تمثل نماذج في الرسالة، لصادفنا حضوره في أول رحلة قام بها "ابن شهيد" مع تابعه "زهير بن نمير" إلى صاحب "امرئ القيس" الذي وجده في "واد من الأودية ذي دوح تنكسر أشجاره، وتترنم أطياره"<sup>(39)</sup>.

وإذا ما سرنا مرة أخرى، لتلمسنا حضوره في ضيافة تابع "أبي تمام" الذي فضل أن يسكن في قعر العين، ويقول النص في هذا: "فانفلق ماء العين على وجه فتى كفلقة القمر، ثم اشتق الهواء صاعدا إلينا من قعرها حتى استوى معنا"<sup>(40)</sup>.

وفي استعمال آخر لهذا الفضاء، ذهب "ابن شهيد" في ولعه بالماء أن أسكن حيوان الجن بأكمله في هذا الفضاء، فكان مستقرهم بركة ماء، وجعلها مكان تواجدهم، ونقاشهم في مختلف المسائل الأدبية، واللغوية.

وفي هذا الفصل الخاص بحيوان الجن، نتوقف عند صورة "الإوزة الأدبية" التي تسبح في بركة ماء؛ فهي مرة سابحة هائمة بنفسها، ومرة طائفة محلقة مبتعدة عن الناس. فمن خلال هذه المقاطع النصية التي وظف فيها "ابن شهيد" هذا الفضاء، نسير باحثين عن دلالات تكتنف هذا الفضاء، وما مغزى استعماله في ثنايا الرسالة.

لعل الدلالة الأولى التي يحملها هذا الفضاء، تتمثلها في قوله تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّا خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ، وَالتَّرَائِبِ)<sup>(41)</sup>، فهو يرمز لبداية خلق الإنسان. كما قد يحمل هذا الفضاء دلالة الطبيعة الأندلسية التي تحمل الأنهار الغزار، والعيون العذاب، وكل مظاهرها الحية، فهو فضاء يستدعي مرة أخرى الأرض الأندلسية الساحرة التي لا يكف "ابن شهيد" عن ندائها، واستحضارها، سواء أعلق الأمر في نثره، أم في شعره.

وكل هذه الدلالات التي يحملها فضاء الماء، توحى برغبة "ابن شهيد" برجوع الأندلس؛ بكل مظاهرها، وجمالها، وطلبه المستمر في العودة إلى هذه الأرض التي كانت

في غد سابق آية من آيات الجمال الربانية التي بثها الله عز وجل في الأرض. فقد ظل أباؤها يتباهون بجمالها الأبدى، ويبدون مشاعر الحب، والصدق لهذه الجنة الخالدة التي ستنقى فضاء يعبق بشذا المحبة والسلام فلنستحضر "الأندلس" لا للتباكي على أطلالها، ولا للوقوف أمام تاريخها لاستدرا عطفه، واستعادة بهائه، ولكن لنكتب بها تاريخا جديدا. فلنطلع جميعا لجعل هذا العالم فردوسا للبشر كافة.

وحاصل النظر يظهر بجلاء أن خصوصية المكان في هذا النص السردي ازداد حضورا، وتوظيفا من خلال تعبيره عن الأماكن الطبيعية الحاضرة بيننا، لكن "ابن شهيد" أعطاها بعدا آخر من التخيل، ليرسم لها أحسن الصور، لأنها في نظره تعبر عن صورة، ومكان واحد ما يزال يذكره، وهو الفردوس المفقود.

وبهذا نخلص إلى أن المكان يعتبر من أبرز الضروريات في الخطاب السردي، فهو مكون جوهري، لا يقل أهمية عن الزمن، والشخص، وله دوره المهم في الحفاظ على تماسك، وانسجام أحداث النص السردي.

### الهوامش:

- (1) جنيت، وآخرون: الفضاء الروائي، (ترجمة: عبد الرحيم حزل)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء: المغرب، بيروت: لبنان، [د.ت.]، [د.ط.]، ص. 006
- (2) خليل موسى: "ملاحم من الرواية العربية في سورية"، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2006م.
- [د.ع.]: <http://www.awu-dam.org/book/06/study/06/39-h-m/indbook06-sd001.htm>
- (3) المرجع نفسه، الموقع نفسه.
- (4) حميد لحمداني: بنية النص السردي "من منظور النقد الأدبي"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء: المغرب، بيروت: لبنان، 2000م، ط1. ص 64.
- (5) حسن نجمي: شعربة الفضاء السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000م، ط1. ص51.
- (6) محمد عويد محمد ساير الطربولي: المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي (484هـ - 897هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1425هـ - 2005م، ط1. ص19.
- (7) (مكان (فيزياء) من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة) <http://ar.wikipedia.org/wiki>
- (8) سيزا قاسم: بناء الرواية "دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984م، [د.ط.]، ص76.
- (9) المرجع نفسه، ص77.

- (10) عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي "معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، [د.ط.]. ص245.
- (11) عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 1998م، [د.ط.]. ص141.
- (12) المرجع نفسه، ص146.
- (13) عبد الملك مرتاض: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلالي لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، ابن عكنون، الجزائر، 1991م، ط1. ص103.
- (14) ابن شهيد الأندلسي: رسالة التّوابع والزّوابع، (تحقيق: بطرس البستاني)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1387هـ - 1967م، ط1. ص75.
- (15) محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، دار الكتب العلمية، بنغازي، ليبيا، 2001م، ط1. ص274.
- (16) ابن شهيد الأندلسي: المصدر نفسه، ص91.
- (17) المصدر نفسه، ص91.
- \* الغيضة: الغابة ذات الشجر الكثير. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م، ط1. ج5، ص78. (مادة غَيْض).
- \*\* السام: الخيزران. ابن شهيد الأندلسي: المصدر نفسه، ص93.
- \*\*\* البهار: نبت طيب الريح (...). وهو نبت جعد له فقاحة صفراء ينبت أيام الربيع، يقال له العرارة. ابن منظور: المصدر نفسه، ج1، ص262. (مادة بَهْر).
- \*\*\*\* الشَّحْر: الشَّحِير، ضرب من الشجر. ابن منظور: المصدر نفسه، ج2، ص403. (مادة شَحْر).
- \*\*\*\*\* الهندي: أي الشجر ذو الرائحة الزكية. ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص93.
- \*\*\*\*\* المعينة: الظاهرة الماء الجارية (...). وقيل: الجارية على وجه الأرض. ابن منظور: المصدر نفسه، ج6، ص75. (مادة مَعِين).
- \*\*\*\*\* ناورد: فارسي الأصل، يراد به ميدان أو ملعب للخيل والبهولان، ربما أطلق على ضرب من المحاربة على الخيول وقهر الخصم. ابن شهيد الأندلسي: المصدر نفسه، ص102.
- \*\*\*\*\* القرارة: المطمئن من الأرض، وما يستقر فيه ماء المطر. ابن منظور: المصدر نفسه، ج5، ص229. (مادة قرر). غناء: أي خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان ناعمة. المصدر نفسه، ج5، ص80.
- (18) عبد العزيز شبيل: "النبية القصصية في رسالة التّوابع والزّوابع لابن شهيد الأندلسي"، حوايات الجامعة التونسية، سوسة، تونس، 1988م. ج2، ص171، 172.
- (19) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي "عصر سيادة قرطبة"، دار الشروق، عمان، الأردن، 1997م، ط1. ص262.
- (20) سليمة عقوني: رسالة التّوابع والزّوابع لابن شهيد دراسة سيميائية، (مذكرة ماجستير)، قسم الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2007م/2008م. (مخطوط). ص134.
- (21) ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص104.
- \*\*\*\*\* المُرْج: الفضاء، وقيل: المرج أرض ذات كلّ ترعى فيها الدواب. ابن منظور: المصدر السابق، ج6، ص35. (مادة مرَج).
- (22) عبد الجواد فخاجي: شرط الشاعرية شرط الحداثة: دراسة نقدية في ديوان موسيقا للبراح للشاعر: بهاء الدين رمضان، شعر، ع يوليو 2004م:

(http:// www.geocities.com/ bahaa 22002/alsahar3.htm.)

(23) المرجع نفسه، الموقع نفسه.

\*\* جبل: جُبُل الإنسان على هذا الأمر أي طُبِع عليه. وجِبلة الشيء: طبيعته وأصله وما بني عليه. ابن منظور: المصدر السابق، ج1، ص370. (مادة جبل).

(24) سليمة عقوني: المرجع السابق، ص142.

(25) نوح: 17.

(26) ص: 71.

(27) منال الحقييل: "حياة الصعلوك الاجتماعية في العصر الجاهلي"، رؤى، النادي الادبي، الحائل، المملكة العربية السعودية، 2007م. ع3:

(http://www.adabihail.com/inf/articles php?actionshow&amp;id=70)

(28) محمد سعيد محمد: المرجع السابق، ص274.

(29) أحمد الناوي بدري: "خصوصية تشكيل المكان في آثار إبراهيم الكوني الروائية: الرباعية نموذجاً"، فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2003م. ع62، ص287.

(30) ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص105.

(31) المصدر نفسه، ص105.

(32) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي "الفضاء، الزمن، الشخصية"، المركز الثقافي العربي، بيروت: لبنان، الدار البيضاء: المغرب، 1990م، ط1. ص300.

(33) نادر حقاقي: "تحليل نص من رسالة التوابع والزوابع إجازة تابع امرئ القيس لابن شهيد"، التراث العربي، إتحد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003م. ع79: (http://www.awu-dam.org/trath/79/trath007-htm #doaly-)

( footer )

(34) أبو القاسم الشابي: الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985م، ط1. ص57، 58.

(35) امحمد بن لخضر فورار: "من ملامح وصف الطبيعة الأندلسية زمن الدولة العامرية"، المخبر "أبحاث في اللغة والأدب الجزائري"، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2008م. ع4، ص25 و34.

(36) أحمد يوسف خليفة: مصادر الأدب الأندلسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2002م، ط1. ص09.

(37) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، [د.ت.]، [د.ط.]. ص313.

(38) الأنبياء: 30.

(39) ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص91.

(40) المصدر نفسه، ص98.

(41) الطارق: 05، 06، 07.